

الهيرمينوطيقا وأصول التواصل مع "الآخر" عند غادامير (Hermeneutics and otherness in Gadamer's Theory)

د/ بوجمعة بلقيل

جامعة الإخوة منتوري / قسنطينة 1-

الجزائر

البريد الإلكتروني: Boudj.belg@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تناقش هذه الورقة العلمية الإمكانيات الإستيمولوجية والميتودولوجية التي تحوزها الهيرمينوطيقا الفلسفية عند الفيلسوف الألماني المعاصر "هانز جورج غادامير" في مجال مقارنة "الآخر"، فبينما يبدو جليا أن مبحث الهيرمينوطيقا منذ بداياته الأولى المنغرس في الميثولوجيا اليونانية من خلال "الرسالة الهرمسية" (Hermes) يحمل في جوفه بعدا تواصليا، فإن هذا البعد بالنسبة لغادامير أخذ طابعا أنطولوجيا بحثا من خلال النظر إلى عملية "الفهم Understanding" الذي هو صلب النظرية الهيرمينوطيقية، بوصفها عملية حوارية ابتداءً بين الذات والآخر، من خلال مفاهيم من قبيل: فاعلية الأحكام المسبقة، التراث، التطبيق...

يهدف هذا البحث لتسليط الضوء على الإمكانيات المعرفية الأصيلة التي تحوزها نظرة غادامير الفلسفية لجوهر الهيرمينوطيقا، ويتصل به ما يتضمنه هذا الجوهر من بنية تواصلية، وهذا ما يتيح لنا تجلية العلاقة البنوية بين الهيرمينوطيقا والمقارنة، وهي حيز الزاوية في كل نقاش يخص مبدأ "الهوية" و"الغيرية".

من أجل تحقيق هذا الهدف اتبعنا مقارنة كيفية تقوم على تحليل المعطيات النظرية للفيلسوف الألماني "غادامير" حول نظريته الهيرمينوطيقية، معتمدين أساسا على كتابه العمدة "الحقيقة والمنهج Truth and Method"، كما أن المقارنة السابقة تتيح لنا إمكانيات المقارنة والتأويل وإعادة الترتيب، في سبيل الحصول على النتائج المرجوة. يمكن إجمال النتائج المتوقعة فيما يلي:

- إدراك التميز الذي تحوزه مقارنة غادامير الهيرمينوطيقية عن بقية المقاربات السابقة.

- تأكيد الطابع الأنطولوجي غير الدوغمائي للعملية الهيرمينوطيقية.

- تأسيس نظرة جديدة للمقارنة تقوم على أسس هيرمينوطيقية، ويمكن تطبيقها في مختلف الميادين المعرفية القائمة على المنهج المقارن.

الكلمات المفتاحية: غادامير، الهيرمينوطيقا، الآخر، التواصل، المقارنة

Abstract:

This research paper discusses The epistemological and methodological insights of the German philosopher "Hans-Georg Gadamer" in his hermeneutical theory which have Strang relation with the notion of "The Othering" as well as the history of hermeneutics since its beginnings in Greek Mythology through the mediation of 'Hermes.' Hermes, in this context, symbolizes a communicative dimension. Gadamer examined this dimension from an ontological perspective while analyzing the "Understanding" process, the Understanding baissically is a result of dialog between the "self" and the "Other".

This paper aims to shed light on the particularity of Gadamerian View of Hermeneutics's Communicative structure, and this allows us to realize the basic relationship between Hermeneutics and Comparison, by which we can clarify the Notions of "Identity" and "Otherness".

To realize this purpose, we use the Qualitative Method, and this allows us to analyze Gadamer's Hermeneutical view through his main book "Truth and Method" (1965), and provide us with additional methodological techniques such as comparative analysis and interpretation. We can suggest the following findings:

- Recognizing the uniqueness of Gadamer's Hermeneutical view.
- Confirming the Ontological structure of Hermeneutics.
- Utilizing Gadamer's Hermeneutical insights to develop a new paradigm of Comparison.

Keywords: Gadamer, Hermeneutics, the Other, Communication, Comparison.

مقدمة:

يعد مبحث الهيرمينوطيقا واحد من أقدم المباحث الفلسفية، حيث تعود أصوله إلى أقدم النصوص الإغريقية، وربما يصنف هذا المبحث ضمن قائمة قصيرة جدا من المفاهيم التي حافظت على مركزيتها خلال مختلف المراحل التاريخية؛ بينما تمت مناقشتها في العصر اليوناني من طرف أهم فلاسفتها على رأسهم أفلاطون وأرسطو، فإنها بقيت محتفظة بقيمتها خلال العصور الوسطى لارتباطها بالنصوص الدينية، كما أنها اصطبغت بالطابع الفيلولوجي وبعده الرومانسي خلال الفترات اللاحقة للعصور الوسطى، وانتهت خلال القرن العشرين إلى المعاني الأنطولوجية والفلسفية الخالصة، ولكن القيمة الأهم لهذا المبحث خلال القرن العشرين يكمن في اعتبارها أحد أهم العوامل في التحول على مستوى "البراديجم Paradigm" خلال نصف هذا القرن، والذي انتقل بموجبه التفكير الغربي من التمرکز حول الحادثة بكل دوغمائيتها، إلى الانفتاح ما بعد الحداثي على النسبي والتاريخي.

لا تنحصر أهمية الهرمينوطيقا بالنسبة إلينا في هذه المكانة التاريخية الفلسفية فقط، بل أيضا فيما انجر عنها من نتائج على عدة مستويات، وربما تكون الصيغة التواصلية للهرمينوطيقا ممثلة في علاقة الأنا بالآخر واحدة من أهم هذه النتائج، وتمنحنا نظرة الفيلسوف الألماني " هانز جيورج غادامير Hans georg Gadamer " صورة واضحة عن هذه العلاقة المركبة والمعقدة بين الأنا والآخر، إذ إن تناوله لها انطلق من تصور أنطولوجي لطبيعة الذات البشرية ومحدوديتها في الزمان والمكان، وسنرى على طول هذا البحث البصائر التي تحملها تنظيراته الفلسفية في هذا السياق، والتي لم تأخذ ما تستحقه من اهتمام إلى اليوم.

1- أصول المبدأ التواصلية للهرمينوطيقا عند الإغريق:

يمثل البعد التواصلية للهرمينوطيقا واحدا من أكثر الأبعاد أصالة داخل هذا الميدان المعرفي، ولا يرتبط هذا البعد بالتطورات المعاصرة لمبحث الهرمينوطيقا فحسب، بل إنه حافظ على مكانة مميزة خلال طول تاريخ الهرمينوطيقا وعبر مختلف تلويناتها، ولكننا معنيون الآن بتسليط النظر على الحمولة التواصلية لما يمكن أن نعتبره نقطة البداية، ولكن أيضا الحجر الأساس الذي يقوم عليه كل البناء الهرمينوطيقي، وهو ما يتصل بالأصل الإيتيمولوجي للهرمينوطيقا خلال العصر اليوناني.

يعود الأصل الاشتقاقي لمبحث "الهرمينوطيقا Hermeneutics" إلى الميثولوجيا اليونانية، وهو ينتهي بصورة أو بأخرى إلى اسم الرسول/ الإله "هرمس Hermes"؛ فلفظ "Hermeneutics" يشتق من الفعل اليوناني "Hermeneuein" والذي يعني "التفسير" أو "الترجمة" (...). وهذا المصطلح له ارتباط أكيد بالإله الإغريقي "هرمس"، والذي يعد الشخصية التي لعبت أدوارا مهمة في القصصيتين اليونانيتين القديمتين "الإلياذة" و"الأوديسة"، حيث كان واحدا من أدواره هو نقل الرسائل من الآلهة إلى البشر، وقد كان بذلك شخصية "توسيطية" تعمل في منطقة "المايين" كمفسر للآلهة، جاعلا المعاني التي ينقلها عن الأولمب مفهومة بالنسبة للبشر⁽¹⁾، ولا يخفى أن هذه المهمة في نقل ما يدخل ضمن دائرة عالم مفارق كعالم الآلهة إلى عالم البشري يعني -من بين أشياء أخرى- أن عملية النقل هذه تتطلب عملية "أقلمة" مصاحبة للمعنى بين وسطين مختلفين في النوع وليس في الدرجة حسب، لهذا، فإن المعنى المنقول للبشر لا يعبر عن المعنى المقصود من طرف الآلهة إلا بقدر ما تتيحه اللغة التي يتم بها نقل هذا المعنى من طرف الرسول "هرمس"، ويكون "هرمس" في هذه الحالة "معني بمهمة تحويل ما هو خارج الفهم البشري إلى شكل يمكن للعقل الإنساني أن يفهمه، الأشكال المختلفة لهذه الكلمة [يقصد كلمة هرمس] تفترض عملية جذب لشيء أو وضعية من الإبهام إلى الفهم، واليونانيون يربطون بين هرمس وبين اكتشاف اللغة

والكتابة، وهي الأداة التي يستعملها الفهم البشري لاستكناه المعنى وتحويله إلى الآخرين⁽²⁾، وربما هذا ما يفسر أن التطورات اللاحقة للهيرمينوطيقا نظرت إلى اللغة على أنها هي الوسط الذي يحدث فيه الفهم مثلما سنرى عند غادامير، فاللغة التي كانت هي الأداة التي يستخدمها الوسيط "هرمس" لنقل المعنى، تصبح - في المراحل التالية لليونان- هي الوسيط نفسه لعملية الفهم بعيدا عن كل الحمولة الميثولوجية لهرمس.

ويقدم الناقد الهيرمينوطيقي المرموق "ريتشارد بالمر Richard Palmer " ثلاثة اتجاهات أساسية لمعنى الفعل الإغريقي " hermeneuein"، وهي على النحو التالي: "1: التعبير بالكلمات (أي القول). 2: الشرح، كأن يتم شرح وضعية أو موقف ما. 3: الترجمة، كما يحدث في ترجمة لغة أجنبية" (...) و"المهمة الهرمسية" هي قيد الاشتغال في كل هذه الحالات الثلاثة، هناك دائما شيء أجنبي، غريب، مفصول عنا من حيث الزمن أو المكان أو التجربة يتم تحويله إلى شيء قريب منا، حاضر، قابل للفهم؛ شيء ما في حاجة إلى تمثيل، شرح أو ترجمة، هو شيء بطريقة ما مجلوب إلى نطاق الفهم⁽³⁾، وبالتالي فإن المكان الطبيعي للهيرمينوطيقا يحتل دائما الفراغات المعنوية التي تحتاج إلى أن تملأ، وهو المعنى الذي لا يمكن أن نفصله على طبيعة التفكير البشري ذاته، ولا يمثل هذا العد الهيرمينوطيقي للذات البشرية شيئا طارئا أو مختصا بجانب واحد، بل إنه يكتنف كل عملية تواصلية مهما كانت طبيعتها.

إن الاعتبار اللغوي للهيرمينوطيقا، كما تمت مناقشتها خلال العصر اليوناني من خلال فلاسفة هذا العصر - وخاصة أفلاطون وأرسطو الذين ناقشا هذه القضية دون كبير اهتمام بالتنظير الدقيق لها أو إدراكها كنظرية قائمة بذاتها⁽⁴⁾ - بإمكانه أن يزود كل طرف من طرفي هذه الثنائية (اللغة والهيرمينوطيقا) بمنظورات جديدة من شأنها أن تعمق فهم كل واحد منهما، وهي المسألة التي ستصبح مرتبطا بالفرس خلال كل التنظيرات المعاصرة، ولكن يمكننا بصورة أولية أن نلخص هذه العلاقة في اعتبار أن كل تأويل هو تأويل لغوي أساسا، كما أن كل لغة محتاجة إلى التأويل للملئ ما تركه من فجوات بالمعنى، وهذا ما يحدث في ميدان الترجمة حرفيا، " فوجود الترجمة هو بسبب الرغبة في التوسط بين عوالم لغوية مختلفة، كما التوسط بين أفعال الكلام والإصغاء داخل اللغة الواحدة"⁽⁵⁾، واختيار الترجمة كمثال هنا هو لسبب كونها عملية لغوية صميمة، ولكن حتى هذا الفهم اللغوي الدارج للترجمة في عرف علماء اللغة المعاصرين سيبدو دوغمائيا إذا ما نظرنا إلى الفهم الإغريقي للكلمة، والذي يجعل منها مرادفا للفهم، وهو المعنى الذي سيؤسس عليه غادامير نظريته الهيرمينوطيقية لاحقا.

إن الأهمية الأساسية إذاً التي تحوزها الهيرمينوطيقا هي قدرتها على إقامة جسور بين الكيانات المختلفة حتى تجعل من عملية التواصل ممكنة، ولا نقصد بالكيان هنا الذات البشرية فحسب، بل يمكن أن يكون يربط هذا الجسرين الذات ونص، أو أثر، أو ذات، أو أي موجود آخر نسعى لفهمه، ومن أجل هذا فإن قضية النقل الحرفي للمعنى لا تدخل في نطاق اهتمام الهيرمينوطيقا إلا إذا فهمنا كلمة "الحرفية" هذه فهما جديداً مناسباً في إطار النسبية التاريخية، وبهذا يكون المعنى فاقداً للقيمة الكلية المحايدة، كما أنه لا يكون في حوزة أي طرف من أطراف الاتصال، بل إنه يخضع لعملية: تحويل، تفسير، ترجمة خلال المسافة الفاصلة بين تلك الأطراف، ومنه تحتل الهيرمينوطيقا هذا المكان الفاصل بالضبط، أي مكان "المابين"، فـ "مثلما تكون طبيعة "هرمس" محددة بـ "المابين"، فإن الهيرمينوطيقا أيضاً تنتمي إلى هذا "المابين"؛ إلى الفضاء بين المتكلم والمستمع، بين القارئ والنص، بين المُفسِّر والمُفسَّر، إنها البينية التي تحدد المكان الخاص للهيرمينوطيقا⁽⁶⁾. وبما أن هذه المسافة الفاصلة لا يمكن إلغاؤها، فإن الهيرمينوطيقا لا تصبح مجرد أداة نستخدمها وقت الحاجة، بل إنها طريقة في التفكير لا نملك طريقة أخرى للتفكير غيرها، ويمكن استنتاج هذا المعنى انطلاقاً من المهمة الهرمسية ذاتها في الميثولوجيا اليونانية؛ فالبشر لا يتلقون كلام الآلهة إلا عن طريق هرمس، ولا يحصل فهم هذا الكلام إلا من خلال تحويل صيغ القول الإلهية إلى تراتيبات ضمن لغة البشر، وفهم البشر لكلام الآلهة هو نفسه هذا التحويل الذي طرأ على كلام الآلهة عن طريق الرسول "هرمس" وليس أي شيء آخر، لأن اختلاف عالم الآلهة عن عالم البشري جعل من عملية الفهم هي نفسها عملية التحويل، الترجمة والشرح.

2- البنية التواصلية للفهم الهيرمينوطيقي عند هانز جيورج غادامير

يُنعت المذهب الهيرمينوطيقي عند "هانز جيورج غادامير Hans georg Gadamer (1900-2002)" بالهيرمينوطيقا الفلسفية، تميزاً لها عن التوجهات الأخرى داخل النظرية الهيرمينوطيقية، كالتوجه الفيلولوجي، اللاهوتي والرومانسي، والحقيقية أن النظرة الهيرمينوطيقية لغادامير تختلف عن كل تلك التوجهات السابقة بقدر ما تستفيد منها، فغادامير ذاته يقرّ بالأثر الذي لكل من هايدجر * ودلتاي ** خاصة عليه، ولكن هذا لا ينقص شيئاً من أصالة تنظيراته، وخاصة في تناوله لإشكالية "الفهم Understanding"، وهي الإشكالية التي ناقشها في كتابه الأهم "الحقيقة والمنهج Truth and Method" (1965)، والتي من خلالها يمكن أن ندخل لتفكير غادامير الهيرمينوطيقي كله.

ينظر "غادامير" إلى مشكلة "الفهم" هذه نظرة تنسجم مع ما رأينا من تصور إغريقي بقدر تختلف عن التصور الرومانسي لها، وهذا من الناحية المنهجية أساساً، فإذا كان التوجه العام للهيرمينوطيقا

عند غادامير يقوم على المبدأ التواصلي، فإن طرائق عمل الهيرمينوطيقا من أجل إدراك الفهم الأمثل بالنسبة له تختلف بشكل جوهري عن التوجه الرومانسي ممثلاً في كل من الفيلسوفين "شلايرماخر F. Schleiermacher" و"دلتاي Wilhelm Dilthey"، ويظهر هذا من خلال آليات العمل كما من خلال الهدف المبتغى؛ ينظر شلايرماخر إلى الهيرمينوطيقا على أنها "فن الفهم"⁽⁷⁾، ولكن كلمة "فن" تحمل في هذا السياق معنى أقرب إلى العلمية حتى يتم إدراك المعنى بدقة أكبر، ولم يكن ليتحقق هذا المسعى دون ابتكار شلايرماخر لمنهجه الذي يطلق عليه اسم "اللحظات القواعدية والنفسية Moments Grammatical and psychological"⁽⁸⁾، وانطلاقاً من هذا التصور كان هدف "شلايرماخر" من "علم الهيرمينوطيقا" واضحاً، وهو دراسة "الفهم بوصفه إعادة معايشة للعمليات الذهنية الحاصلة عند مؤلف النص"⁽⁹⁾. بينما كان "دلتاي Wilhelm Dilthey" ينطلق من مبدأ مشابه في إعادة المعايشة، ولكنه ينتهي إلى هدف مختلف تماماً، وهو فهم الحياة ذاتها بكل تمظهراتها بدل فهم نفسية الكاتب⁽¹⁰⁾، لهذا فإن "دلتاي" ينظر إلى الهيرمينوطيقا بوصفها منهجاً للعلوم الإنسانية جميعاً.

يقترّب تصور "غادامير" لإشكالية الفهم من تصور أستاذه "هايدجر" من حيث الاعتبار الأنطولوجي، ولكل "غادامير" يناقش هذه الإشكالية بدقة وتركيز أكبر، من خلال استعمال منظومة مصطلحية خاصة، فالفهم بالنسبة له هو دائماً فهم لشيء ما، وهذا يعني أن مجرد التفكير في الفهم يعني إدراج تصور ما لهذا الآخر الذي يراد فهمه، يتخذ الفهم أبعاده من خلال طبيعته التاريخية؛ لذلك فهو ذو بنية تطويرية دائمة، فلا وجود لفهم منته لا يقبل أية مناقشة كما كان الحال بالنسبة للتزمت الذي ما فتئت تكرسه الهيرمينوطيقا اللاهوتية في العصور الوسطى من خلال نظرية الفهم الأوحد للمعنى الإنجيلي، كما أن هدفه ليس هو أبداً إدراك الآخر إدراكاً يمثل حقيقة هذا الآخر كما يتصورها هو ذاته مثلما نجده في الهيرمينوطيقا الرومانسية، إن الفهم بصورة أدق يتخذ شكلاً دائرياً، فهو انتقال بين الجزء والكل كما شرحه شلايرماخر، ولكن هذا الانتقال لا يحمل الطابع السيكلولوجي، بل الطابع الأنطولوجي على شاكلة ما قرره "هايدجر" عند حديثه عن الطبيعة التأويلية لـ"الدازين Dasein"، لهذا فإن "غادامير يؤكد أن" الشخص الذي يحاول فهم نص ما هو دائماً شخص في حالة شروع، فهو يشرع في معنى للنص ككل حالماً ينبثق معنى أولي في النص. وهذا المعنى ينبثق فقط لأن هذا الشخص يقرأ النص وهو محمل بتوقعات معينة بخصوص معنى ما. وتنفيذ هذا الشروع المسبق - الذي ينقح باستمرار طبقاً لما ينبثق في أثناء سبر الشخص غور المعنى- هو فهم لما موجود"⁽¹¹⁾، ويحيل هذا على أن الفهم البشري لا ينظر إلى حقيقة الآخر في كليتها، بل إن حقيقتها تكمن أساساً في تاريخيتها؛ أي في

افتقادها لنقطة مركزية، وهذا الفقد لا يعبر عن نقص ما، بل إنه طبيعة وجودها ذاته، ولا يتحقق هذا الفهم إلا في ظل فاعلية ما يسميه غادامير "الأحكام المسبقة"، وهو مفهوم لا يحمل أي قيمة سلبية هو الآخر مثلما كان ينظر إليه سابقا.

إن هذه الأحكام المسبقة تكون محايثة للإدراك، وتتخذ صبغة توجيهية، لذلك فعملية التلقي تتلقى التوجيه باستمرار من قبل مكتسباتنا القبلية، هذا ناتج أساسا عن انتمائنا للتراث، و" معنى الانتماء"- أي عنصر التراث في وعينا التاريخي التأويلي- يُنجز في تشاركية الأحكام المسبقة الأساسية، التي تقدم العون للمؤول. فالتأويلية يجب أن تبدأ من الموقع الذي يكون فيه الفرد الساعي إلى فهم شيء ما مرتبطا بالموضوع الذي يأتي في لغة النص التراثي، ويتمتع فيه الفرد، أو يكتسب، بعلاقة بالتراث الذي يتكلم فيه النص⁽¹²⁾. إنه عنصر بنيوي في تركيبنا العقلي؛ فهو يعيش فينا ويصنع أحكامنا، ونحن نفهم أي نص ينحدر إلينا من الماضي بموجب وضعنا في الحاضر؛ أي أن الفهم يفترض ما يسميه غادامير بعنصر "التطبيق Application"؛ حيث يعتبر أن " التأويلية التاريخية لها أيضا مهمة إنجاز التطبيق، لأنها تقوم أيضا بدور معنى قابل للتطبيق، بحيث تجسر بوعي وبشكل صريح المسافة الزمنية التي تفصل المؤول عن النص، وتتغلب على غرابة المعنى الذي يخضع له النص⁽¹³⁾. وذلك من خلال تطبيق هذا النص على اللحظة الراهنة، أي من خلال فهمه انطلاقا من الحاضر.

إن فهم الآخر بالنسبة لغادامير لا ينطلق من تحيزات معنوية ثابتة، بل يعني وجود نقطة التقاء بين الفاهم والمفهوم لا يمكن بلوغها إلا في إطار تاريخية كليهما؛ ففهمنا لنص ما مثلا لا يعني أننا أرغمنا النص على حمل المعنى الذي يجول في أذهاننا، كما أنه لا يعني أن نضع أنفسنا بين قوسين -كما كان "هوسرل" يقول- كي يفرض علينا النص معناه، إننا ببساطة نأتي إلى النص ونحن نحمل تراثنا وأحكامنا التي لا نملك إلا حملها، فنجد أن النص كذلك يكلمنا من خلاله تراثه الخاص، وفي اللحظة التي يتقاطع فيها أفق المؤول مع أفق النص يحدث الفهم، لهذا فإنه يمكن القول أن فهم الآخر يقوم على تفاهم واتفاق لا على إقصاء لأي طرف، ومفهوم "التفاهم" هو الوحيد الذي بإمكانه أن يلغي كل الحواجز في سبيل الفهم؛ ولا يتم ذلك إلا من خلال اتصالنا بالنص اتصالا منفتحا عن طريق الحوار الذي يضمن ردم الفجوة بيننا وبين النص الناتجة عن غيبيته؛ "فالعامل التأويلي يتأسس على القطب المتناقض الذي يحمل الألفة والغرابة، غير أن هذا القطب يجب ألا يعد، كما عده شلايرماخر، قطبا نفسيا، بوصفه المدى الذي يشمل لغز الفردية، بل يجب أن يعد في الحقيقة، قطبا تأويليا؛ أي يتعلق بما قيل، باللغة التي يخاطبنا بها النص، وبالقصّة التي يخبرنا بها، وهنا أيضا ثمة توتر. توترين غرابة النص التراثي علينا

وألفته لنا، وبين الموضوع التاريخي المقصود البعيد عنا والانتماء إلى التراث. إن الوضع الحقيقي للتأويلية هو في المابين⁽¹⁴⁾، فعملية الفهم دائما تقوم بـ "مهمة تقريبية" بين النص والمؤول، وانتماء الأنا والآخر (النص) للتراث نفسه هو الذي يجعل من هذه العملية ممكنة وفاعلة، فالنص نفسه هو جزء من التراث الذي هو شيء واسع جدا بحيث يحتوي، لا فقط على التراث القومي الذي يشكل منطلق شخص ما، بل كل ما يمكن أن يدخل في تركيب الماضي، أي كل ما ينضوي تحت الوعي البشري والذي يؤثر في توجيه تأويل الحاضر، تماما كما يؤثر الحاضر في تأويل التاريخ.

3- الترجمة بوصفها تواصلًا عند غادامير:

تعد الترجمة مثالا جيدا على المعنى الذي يحمله مفهوم الفهم عند غادامير، والحقيقة أن غادامير نفسه لم يناقش قضية الترجمة إلا في إطار نقاشه لقضية الفهم اللغوية، وهذا ما يجعل من تناول الترجمة ذا قيمة على عدة مستويات: الفهم، اللغة، الآخرة، ولا يعد غادامير أول من تناول قضية الترجمة من هذه الزاوية إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الترجمة منذ الإغريق هي إحدى مرادفات الهرمينوطيقا كما رأينا، ولكن تناول غادامير لهذه المسألة يمتلك من الخصوصية ما يجعل من تبصراته فيها وسيلة أساسية لفهم فلسفته الهرمينوطيقية في بعدها التواصلية مع الآخر، خاصة إذا علمنا أن الترجمة في جوهرها تتصل بعلاقة الأنا بالآخر، وقد أصبحت منذ القرن التاسع عشر أحد أهم ميادين الأدب المقارن.

تحتل الترجمة بمفهومها اللغوي -كما في ممارساتها التطبيقية- مكانة خاصة في تأويلية غادامير، إذ إنها ترتبط بمعان جوهرية في البناء الهرمينوطيقي، فـ "المعنى (حدث، شخص، أثر) الذي يجب أن يُفهم هو دائما في حاجة إلى أن يكون مترجما، ومنه فإن الفهم والتطبيق والترجمة تصبح غالبا مفردات مترادفة عند غادامير، إنَّ ما أسعى لترجمته (فهمه، تطبيقه) هو دائما شيء غريب عني ابتداء، ولكن هذا بطريقة ما يستلزم تأويلي له"⁽¹⁵⁾، وإذا كان الفهم بهذا المعنى هو ترجمة؛ أي تحويل ما هو خارج نطاق الذات البشرية إلى شيء قريب منها (يجب أن نتذكر هنا دائما المهمة الهرمسية الأصلية) عن طريق "التطبيق"، بتحويل المعاني المراد فهمها إلى تراتبيات قابلة للسبر من طرف الذات الفاهمة المستندة على كل أحكامها المسبقة، فإن الترجمة بوصفها فهما متداخلة مع المعنى الأول جوهريا، ولكنها تكشف عن قدرة الترجمة على كشف الدرجة القصوى لاشتغال الفهم داخل العملية الهرمينوطيقية.

وهذا المستوى من الاشتغال الهرمينوطيقي هو ما عكف غادامير على إيضاحه، من خلال حالة وجود مترجم بين متكلمين للغتين مختلفتين: " في مواقف معينة، حيث يكون بلوغ فهم ما معطلا أو

معاقا، نصبح أولا واعين بشروط الفهم بأسره، ولذلك فإن العملية اللفظية التي تكون بها محادثة بين لغتين مختلفتين ممكنة عبر الترجمة هي عملية لنقل المعلومات على نحو خاص، وهنا يجب على المترجم أن يترجم المعنى ليفهم في السياق الذي يحيا فيه المتكلم الآخر. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنه حر في تحريف معنى ما يقوله الآخر، بالأحرى يجب أن يسان المعنى، ولكن مادام يجب أن يكون مفهوما ضمن عالم لغة جديدة، فيجب أن يؤسس شرعيته ضمنها بطريقة جديدة، وهكذا كل ترجمة هي في الوقت نفسه تأويل⁽¹⁶⁾، تشير هذه الفقرة إلى فاعلية الفهم أثناء عملية الترجمة في سياق حوار، إن العملية الحوارية بمفهومها الهيرمينوطيقي تفترض انفتاحا للمتحاورين، حيث يكون هناك استعداد مبدئي لعدم توجيه هذه المحادثة نحو وجهة محددة مسبقا، إن الحوار (المحادثة) كما يراه غادامير يحمل طابعا أفلاطونيا^(***)، "إن كل محادثة هي عملية لبلوغ فهم ما، وبهذه الطريقة هي تنتهي لكل محادثة حقيقية ينفتح فيها كل طرف على الآخر، ويقبل حقا بوجهة نظره كوجهة نظر صحيحة، ويحول نفسه إلى الآخر إلى المدى الذي لا يفهم فيه فردية هذا الآخر الخاصة، بل ما يقوله. وما يجب أن يدرك هو جوهر صحة رأيه، وبذلك نكون منسجمين بصدد الموضوع"⁽¹⁷⁾، وانطلاقا من هذه البنية المنفتحة للمحادثة يمكننا أن نضع إشكالية الترجمة في سياقها الحقيقي: كل عملية حوارية تفترض اشتغالا لآلية الفهم داخل لغة مشتركة، حيث يجمع المتحدثين تراثٌ مشترك، وفي هذا المستوى من الحوار يشتغل الفهم وفق نمطه الطبيعي، أي وفق ما تفترضه الدائرة الهيرمينوطيكية من اكتساب كل متحاور لأحكام مسبقة، حيث تعديلها وفق مخرجات الحوار، وتمثل في هذه الحالة كل ذات متحاورا أناها في مقابل الآخر الشريك في عملية الحوار، يتشكل الفهم عبر عملية الأخذ والرد الحوارية هذه حتى ينبثق المعنى الذي هو نتيجة لكل هذه العملية الحوارية.

إن هذا كله يمثل مستوى أولا من الفهم، ولكن ماذا إذا كان الحوار يحدث عبر وسيط ترجمي، حيث لا يفهم أحد المتحاورين الآخر إلا عبر هذا الوسيط، هنا بالذات يأخذ الفهم قيمة أخرى من خلال هذا الوسيط الترجمي، حيث تمثل هذه العملية التوسيطية مستوى آخر من الفهم، إن المترجم في هذه الحالة بحاجة إلى إقامة عملية فهم مزدوجة، "فهناك محادثة أولى بين المؤول والآخر، ومحادثة ثانية بين المؤول ونفسه"⁽¹⁸⁾، تمثل المحادثة الأولى بالنسبة للمترجم مع أحد طرفي المحاوراة درجة أولى من الفهم تشبه أي محادثة أخرى بين شخصين، ولكن عملية نقل نتائج المحادثة مع الطرف الأول إلى الطرف الثاني تشكل صعوبة مضاعفة، لأنها تتطلب نقلا للمعنى بواسطة وسيط غير محايد وهو اللغة، ومحاولة إيجاد طريقة ما للقول تفترض نقل ما تم فهمه إلى لغة الهدف يستلزم عملية انتقائية من القاموس

اللغوي للغة الهدف تحكمها نفس آليات الفهم الأولى، ولكن بدرجة أعلى من الصعوبة، حيث "نادرا ما يمكن أن يكون موضوع الترجمة منفصلا عن اللغة، والمترجم الوحيد الذي يعيد إبداع النص هو ذلك المترجم الذي يحدث في اللغة الموضوع الذي يشير إليه النص، ولكن هذا يعني إيجاد لغة لا تكون لغته الخاصة حسب، بل تكون مناسبة للأصل أيضا، إن موقف المترجم وموقف المؤول هو موقف واحد أساسا"⁽¹⁹⁾.

تشكل "آخرية Otherness" النص حجر الزاوية في كل النقاش الحاصل حول الترجمة، وإذا كانت سمة "الآخرية" موجودة حتى عندما تكون لغة النص ولغة المؤول واحدة، فإن التعامل مع النص الأجنبي يضاعف بصورة ما آخريته، وبالتالي تكون معرفة الآخر صعبة كلما كان التراث اللغوي للنص الأجنبي بعيدا عن ذلك الذي تحوزه لغة المؤول، وإذا تعلق الأمر بنصوص مكتوبة، فإن الإشكالية تزداد تعقدا، حيث إن هذه النصوص تفتقر لأية عوامل مساعدة، على خلاف اللغة المنطوقة في المحادثة، وهذا ما وقف عليه "بول ريكور": "ثمة مشكل تأويل بما أن ثمة نصوص مكتوبة يخلق استقلالها صعوبات خاصة، وأنا أفهم الاستقلال على أنه استقلال النص بالنسبة لقصد المؤلف وموقف العمل والقارئ الأصيل The original reader، فالمشكلات التي من هذا النوع تكون محلولة في الخطاب الشفهي بنوع من التبادل أو التفاعل، وهو ما ندعوه بالحوار أو المحادثة، فمع النصوص المكتوبة يجب على الخطاب أن يتكلم بنفسه"⁽²⁰⁾، فالمترجم في هذه الحالة عليه أن يقيم حوار مع النص محل الترجمة، ولما يستقر المعنى في ذهنه يعيد نقله إلى لغة الهدف، حيث يتم "إظهار" ما تم فهمه في شكل كلمات.

إن هذا الوضع يجعل الترجمة هي درجة قصوى من التأويل، ويمكن – من هذه الناحية- أن نقارنها بالفنون الأدائية؛ أي تلك الفنون التي تعتمد على الإظهار مثل التمثيل المسرحي، والأداء الموسيقي، والرسم، والسينما...، فكل هذه الفنون تضاعف من العملية التأويلية كونها تجعل التأويل شيئا ملموسا خلال محاكاتها للأصل، لنقل إنه عملية "تحقيق realization" للتأويل الذي هو صورة إدراكية. يظهر ذلك خلال تمثيلنا لمسرحية ما مثلا، فهذا "الضرب من إعادة الإنتاج ليس خلقا ثانيا للأول؛ إنه بالأحرى يجعل عمل الفن كما لو أنه أُبدع للمرة الأولى. إنه يُحيي علامات النص الموسيقي والمسرحي. والقراءة جهازا هي عملية مشابهة من حيث إنها توقظ نصا وتأتي به إلى منطقة الحضور المباشر"⁽²¹⁾، إن النص الأدائي في كل الحالات ليس مختلفا عن النص الأول؛ إذ إنه يتعدّ فصل النص عن تأويله، والتأويل ليس شيئا آخر غير ذلك الشيء الذي نوّله، إنه باختصار الطريقة الوحيدة لاستيعاب النص الأصلي، لهذا اعتبر غادامير أن " الترجمة هي ذروة التأويل الذي يكونه المترجم للكلمات"⁽²²⁾، فنظرية الترجمة عند

غادامير لا تقوم على عملية نقل لمقاصد النص الأصلي أو لمقاصد كاتبه، بل هي -ككل التجربة التأويلية- عملية تاريخية يتكلم خلالها النص لغة، تعبّر عن التقاء أفقي المترجم المؤول والنص ذاته، وينتج عن هذا الالتقاء توسيع لأفق اللغة بخبرات جديدة.

خاتمة:

بعد هذا النقاش الموجز ولكن المركز للطبيعة التواصلية لمبحث الهرمينوطيقا عموماً، وتجلياته في مذهب الفيلسوف الألماني "هانز جيورج غادامير"، يمكننا أن نلخص أهم النتائج المتوصل إليها في النقاط الآتية:

أن الهرمينوطيقا خلال العصر اليوناني كانت مرتبطة أساساً بوعي طبيعة الاختلاف الجوهرية الذي جاءت من أجل أن تجعل منه فعلاً تواصلياً عن طريق المهمة الهرمسية، ولئن كان هذا الجانب اللاهوتي هو الغالب على كل نقاش يخص الهرمينوطيقا في هذا العصر، فإنه يعكس -من بين أمور أخرى- الحياة اليونانية وطريقة وعيها للآخر المختلف، خاصة إذا وضعنا في الحسبان علاقة اليونان بما جاورها من شعوب وحضارات.

أن الهرمينوطيقا الفلسفية عند غادامير غيّرت بشكل حاسم كفايات إدراك الذات للآخر عن طريق عملية الفهم، ومن هذه الزاوية يمكن أن ننظر إلى التوجه الغاداميري على أنه النقيض الفلسفي لتوجه الفيلسوف "إدموند هوسرل" الذي كان يبحث عن إدراك "الأشياء ذاتها" في بعدها الترنسندنتالي، وهذا ينجر عنه تقسيم أكثر جذرية يكون طرفاه: التفكير العلمي والتفكير التأويلي.

لا تمثل الترجمة عند غادامير - برغم أهميتها الأكيدة- إلا مثالا تمت مناقشته في بضعة صفحات خلال كتابه العمدة "الحقيقة والمنهج"، ولكن هذا النقاش المقتضب لها لا يعبر عن حقيقة قيمتها بقدر ما يعبر عن انشغال غادامير عنها بمناقشة قضايا نظرية أخرى تبدو أكثر أهمية خلال تأسيسه لبنائه الهرمينوطيقي، ولكن هذا المدخل الهرمينوطيقي للترجمة بإمكانه أن يمدنا بأدوات منهجية مبتكرة نحن في أمس الحاجة إليها من أجل تجديد النظر إلى إشكالية الترجمة، خاصة داخل ميدان الأدب المقارن.

هوامش البحث:

¹ (Stanley E. Porter & Jason C. Robinson, Hermeneutics: an introduction to interpretive theory, WILLIAM B. EERDMANS PUBLISHING COMPANY, MICHIGAN / CAMBRIDGE, U.K, 2011, p2,3.

¹²(- Richard E. Palmer, (1969), Hermeneutics: Interpretation Theory in Schleiermacher, Dilthey, Heidegger, and Gadamer, NORTHWESTERN UNIVERSITY PRESS, U.S.A, p13.

¹³(- Ibid, p13.

¹⁴(- See : Jussi Backman, Hermeneutics and the Ancient Philosophical Legacy. In The Blackwell Companion to Hermeneutics, Edited by Niall Keane and Chris Lawn, Wiley Blackwell, U.K, 2016, p24, 25.

¹⁵(- The Blackwell Companion to Hermeneutics, Edited by Niall Keane and Chris Lawn, Wiley Blackwell, U.K, 2016, p3.

¹⁶(- Jeff Malpas, PLACE AND SITUATION, In: THE ROUTLEDGE COMPANION TO HERMENEUTICS, Edited by Jeff Malpas and Hans-Helmuth Gander, Routledge, London and New York, 2015, p354.

(*) - يظهر هذا التأثير في التوجه الفلسفي العام لغادامير، ولكنه يظهر في صورته الأوضح من خلال كتاب غادامير عن أستاذه هايدجر المعنون "طرق هايدجر" حيث يتكلم عنه ليس فقط بوصف فيلسوف فقط، بل بوصفه جزءاً من تاريخه الخاص. ينظر: - Hans-Georg Gadamer, Heidegger's ways, Translated by John W. Stanley, State University of New York Press, 1994, p vii, viii.

(**) - يصرح غادامير بأن خلفيته الفلسفية تعود لدلتاي. ينظر: - غادامير هانز غيورغ: فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، لبنان- الجزائر- المغرب، 2006، ص179.

¹⁷(- See : Richard E. Palmer, (1969), Hermeneutics: Interpretation Theory in Schleiermacher, Dilthey, Heidegger, and Gadamer, op. cit, p86.

¹⁸(- See : Inga Römer, Method. In: The Blackwell Companion to Hermeneutics, Op. cit, p87.

¹⁹(- Richard E. Palmer, (1969), Hermeneutics: Interpretation Theory in Schleiermacher, Dilthey, Heidegger, and Gadamer, op. cit, p86.

¹⁰(- Michael Lessnoff, Dilthey. In : Routledge History of Philosophy Volume VII (The nineteenth century), EDITED BY C.L.Ten, Routledge, London and New York , 1994, p173.

⁽¹¹⁾ - المصدر السابق، ص370.

⁽¹²⁾ - هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص404.

⁽¹³⁾ - المصدر السابق، ص423.

⁽¹⁴⁾ - هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص404.

¹⁵(- jean grondin, (2002), Gadamer's Basic Understanding of Understanding, Op, Cit, p43.

⁽¹⁶⁾ - هانز جورج غادامير، (2007)، الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص506.

(***) - لا يخفي غادامير تأثيره بمحاورات أفلاطون في كتابه العمدة "الحقيقة والمنهج"، كما أن كتابه المتضمن دراسات نقدية لمحاورات بعينها يبين مدى أهمية تلك المحاورات بالنسبة لتوجهه الهرمينوطيقي كما يؤكد على ذلك مترجم كتاب " حوار وجدل: ثماني دراسات هرمينوطيقية حول أفلاطون". ينظر:

-Hans-Georg Gadamer, (1980), Dialogue and Dialectic :Eight Hermeneutical Studies on Plato, Yale University press, Traslated by P. Christopher Smith, London, P ix.

⁽¹⁷⁾ - هانز جورج غادامير، (2007)، الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص507.

- (18) - المصدر نفسه، ص 507.
- (19) - المصدر نفسه، ص 509.
- (20) - بول ريكور، (صيف 1999)، "الاستعارة والمشكل المركزي للهيرمينوطيقا"، تر: طارق النعمان، مجلة الكرمل، فصلية ثقافية تصدر عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، العدد 60، فلسطين، ص 169.
- (21) - هانز جورج غادامير، (2007)، الحقيقة والمنهج، المصدر السابق، ص 523.
- (22) - المصدر نفسه، ص 506.

قائمة مراجع البحث:

- 1- هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: حسن ناظم، علي حاكم صالح، دار أوبا، ط1، طرابلس، ليبيا، 2007.
- 2- غادامير هانز غيورغ: فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، لبنان- الجزائر- المغرب، 2006.
- 3- بول ريكور: "الاستعارة والمشكل المركزي للهيرمينوطيقا"، تر: طارق النعمان، مجلة الكرمل، فصلية ثقافية تصدر عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، العدد 60، فلسطين، صيف 1999.
- 4- Hans-Georg Gadamer, Dialogue and Dialectic :Eight Hermeneutical Studies on Plato, Yale University press, Traslated by P. Christopher Smith, London, 1980.
- 5- Hans-Georg Gadamer, Heidegger's ways, Translated by John W. Stanley, State University of New York Press, 1994.
- 6- jean grondin, Gadamer's Basic Understanding of Understanding. In: the cambridge companion to GADAMER, Edited by Robert J. Dostal, Cambridge University Press, New York, 2002.
- 7- Jeff Malpas, PLACE AND SITUATION, In: THE ROUTLEDGE COMPANION TO HERMENEUTICS, Edited by JeffMalpas and Hans-Helmuth Gander, Routledge, London and New York, 2015.
- 8- Michael Lessnoff, Dilthey. In : Routledge History of PhilosophyVolume VII (The nineteenth century), EDITED BY C.L.Ten, Routledge, London and New York , 1994.
- 9- Richard E. Palmer, Hermeneutics: Interpretation Theory in Schleiermacher, Dilthey, Heidegger, and Gadamer, NORTHWESTERN UNIVERSITY PRESS, U.S.A, 1969.
- 10- Stanley E. Porter & Jason C. Robinson, Hermeneutics: an introduction to interpretive theory, WILLIAM B. EERDMANS PUBLISHING COMPANY, MICHIGAN / CAMBRIDGE, U.K, 2011.
- 11- The Blackwell Companion to Hermeneutics, Edited by Niall Keane and Chris Lawn, Wiley Blackwell, U.K, 2016.